الفصل الثالث

عنترة بن شداد ..

من قصيباء.. إلى عيون الجواء

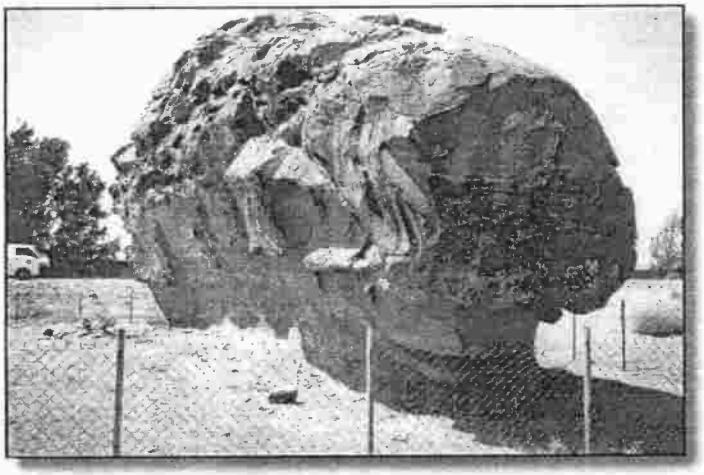

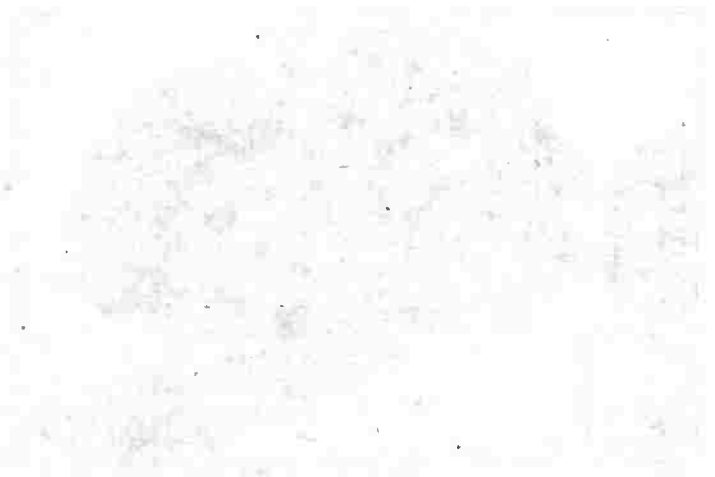

هانحن أولاء فى بلاد القصيم الواقعة فى منتصف الطريق إلى شمال السعودية.

وها هو ذا الطريق منبسط إلى اللقاء بعنترة بن شداد.. أو عنترة العبسى الذى تسكنك تجاهه ذكريات «تعارف» تضرب فى سنواتك الأولى، أو فى خزانة ذكريات طفولتك، ذلك الجدار الرقيق الذى تقفز منه كلما تعبت من إحصاء الشعرات البيض وهى تتسلل من فوديك إلى حيث «قد» تشعل الرأس شيبا..!!

الطفولة.. التى مازلت تأنس بها كلما أغلقت عليك أبواب الراهن وانعزلت بكليتك عن هذا العالم.. أو إذا دخلت «داخلك» فى أية لحظة ينتعش فيها صخب الأشياء حواليك..

كان عنترة أحياناً.. قصة مرسومة فى مجلات الأطفال، لكن الخيال فيها كان دائما أكبر من الحقيقة.. فمازلت تتذكر دهشتك وأنت ترى عنترة صغيراً يجندل أسداً.. وقتها تساءلت ببراءة أعوامك الأولى: وهل توجد آساد فى الصحارى العربية..؟! لكن أحداً لم يُجبك، ولم تكرر السؤال لأن «فن» الجدل لم يكن عرف طريقه إلى روحك وقتذاك.. وظلت الصورة المتأرجحة بخيوط الذكريات ترتسم فى ناظريك وتتوالى، والأسد صريع وعنترة «يزأر» فوقه وشيبوب يتقافز حوله فى بلاهة..!

لم تكن تعرف وقتها ماذا تعنى الطبقية ولماذا كان الاضطهاد الدائم لذوى البشرة السوداء، مثلما لم تكن تعرف أيضا لماذا يقاوم هذا «العنترة» قدره الموسوم ويرفضه وينتصر عليه..

هل لأنه أحب عبلة..

أو لأن روحه فى الأساس كانت أكثر إباءً مما ظنَّ الجميع.

هذه الأسئلة لم تطف بذهنك وإن كان حماسك للرجل يقوم على أنه «فارس جدع يأخـذ حقه بذراعـه».. ذراعه الذى يثنى الحديد ويحمل سـيفاً بتاراً، وإن كانت القصص المرسـومة فى مجلات الصغار قد بررت لك همجية الحياة القبلية القديمة وقدمـت لك السـبىّ واغتنام الضعفاء وإشـاعة الذعر بين الديار على أنه فروسـية «عصمـاء».. وهو خطأ مازالت مجـلات الأطفال العربية مسـتمرة فى مثله بنجاح كبير..!!

حتى إذا كبرت قليلاً.. ومعك كانت تكبر التسـاؤلات.. رأيت السـينما العربية أيضا تسهم فى هذا التزييف:

كان «بطل الترسـو» - فريد شوقى - يمارس «الأكشن» هذه المرة بالسيف، وهو يرتدى أزياء ما تظن عنترة نفسـه كان يحلم بمثلها، ويتجه هذا البطل المزيف إلى «الحـيرة» - شمالا - ليأتى بالنـوق العصافير مهراً لعبلة - التى لم تكن فى ذلك الشـريط تستحق أكثر من عشـرة دراهم - فيقع فى الرمال المتحركة التى لا تتوفر إلا فى صحراء الربع الخالى الواقعة - جنوبا - والتى مازالت رمالها تتحرك، فيما يقع الشـريط السـينمائى أيضا فى كثير من المغالطات: فقبيلة بنى عبس تغنى فيه بمناسـبة وبغيرها، وبعض راقصى فرقة الفنون الشعبية يتقافزون فى الخلاء، بينما عمارة بن زياد منافس عنترة على حب عبلة - فى الشريط طبعاً - يتحرك ببلاهة وبشكل منعّم يثير الاشمئزاز (على رغم أنه كان أحد فوارس بنى عبس ولم يكن له فى عبلة مأرباً)..

إذن.. كل ما سكنك فى هذه المرحلة كان تشويها متعمداً حاول اختراق ثوابتك.. وكان الفرق شاسعاً بين ما التقطته طفولتك وبين ما يراه ريعانك..

فأين هى الحقيقة..؟!

فى الكتب.. أو فى الحكايات المروية، أو تحت جلباب شاعر الربابة الذى كان يجوب «قنا».. مدينتك البعيدة المسـتحمة دائما بماء الظهيرة.. والتى كان شـبابها «القديم» يسهرون مع غزوات عنترة وارتحالات أبى زيد الهلالى فى القفار والبوادى

قبل أن يصل «الفيديو» وغيره وتضيع الاهتمامات.

لا شـيء كان واضحـاً لديك فى كل المراحل.. ومرَّ عنترة أمام عينيك بأشـكاله المتناقضة ليسـتريح فـى صندوق مهمـلات الذاكرة وليقفز آخـرون وآخرون محل الاهتمـام، ثم يعبرون صامتـين أيضا لتقفز الإبداعات وتتشـابك أحداث القراءات وتنتقض عصافير القصائد فى أقفاصها الحجرية بحثاً عن مفر..

فلماذا عاد عنترة فجأة من تلك الخزانة الملأى بالتهويمات «ليفرد» طوله فى كامل المخيلة ويعود لحمل سـيفه – الذى يسـتعمله حرس التشريفات الآن – وهو يزأر بشكل اعتبرته «حماقة» بينما يتدافع على يدىْ صديقك القاص السعودى عبد العزيز مشـرى، الذى «أتى» به إلى القرن العشـرين – فى إحدى قصص مجموعته أسفار السروى – حافياً على الأسفلت «المعاصر» ليوقفه شرطى قمئ وجاهل ويبعثر كرامته التاريخية على الأرض.. ثم.. يجندله بطلقة واحدة، وهو الذى كانت تتكسر حواليه النصال على النصال..

لماذا عنترة..؟! ولماذا الإصرار على لقياه..

أتـراه الحنين لمثل هؤلاء وافتقادهم فى زمن الـلا بطولة العربى، أو ترى لكونه فريد عصوره القديمة خاصة فى ارتدائه ثوب الإباء والشمم:

ولقد أبيتُ على الطَوى وأظَلُّهُ حتـى أنـالَ بـهِ كريـمَ المأكـلِ

وهـى إحدى الصفات التى جعلت الرسـول الكريم صلى الله عليه وسـلم يقول «ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة»..

أو لأنـه كان عنوانـاً للأخـلاق الرفيعـة التى جعلتـه أيضا عنوانا للفروسـية المتكاملة..

أو لأنه كان شـاعراً فذّاً كتبت قصيدته بماء الذهب وعلقت على أسـتار الكعبة، علـى رغم أنـه كان مُقِلاً من قبلهـا ومن بعدها حيث كان يقول من الشـعر بيتين أو ثلاثـة، حتـى ذهبت الركبان إلى القول بأنه وضع فـى هذه المعلقة – أو المذهبة – كل شاعريته ومياهها العذبة..

أسئلة كثيرة تمر.. وأخرى ترتدى جواربها لتقفز أسوار المسافات والأزمنة، لكن

السؤال المهم: أين مواضع عنترة الآن.. كان الأهم.. وهو السؤال الذى بدأت فى إلقائه على بعض المثقفين السعوديين، فذهب الناقد فائز أبّا إلى أنه فى شمال أرض اليمن، متعللاً بأن ذوى البشرة السوداء «متوافرون» هناك فى بعض المواضع – التى لم يتذكرها وقت المحادثة – وأعتقد أنه يميل برأيه إلى القبائل المعروفة باسم عبس فى عصرنا الراهن، وهو ما أشار إليه الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل فى بحثه الشامل «شعر بنى عبس فى الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموى» فقال: إن القبائل المعروفة بذات الاسم حالياً هى:

– بنو عبس: فى تهامة فى الجنوب الغربى للمملكة العربية السعودية، وبلادهم تمتد من البحر إلى خمسة وعشرين ميلا فى الداخل ويجاورهم من القبائل بنو حسن فى الشمال وبنو أسلم فى الشرق، وبنو وزعات من مُغيد فى الجنوب، وأفخاذهم: مطولة، مناصير الغُريرة، كفرا، رُنَّف، شَغَار، خرازة، قطبعة، بَطَارى، موانع.

– بنو عبس فى تهامة فى جيزان قاعدتهم ضَمَد وهم: قبيلة العزيين، السلاطين، الصبارنية، آل غشم، آل رشيدة، الشقافية، النهارية، آل موید، الخواجية، آل قطنية.

ويذكر حسن عبد الله القرشى فى كتابه «فارس بنى عبس» أن عبس جيزان من القحطانية من خولان.

– بنو عبس: من بنى شهر فى تهامة وهم: الحصنة، الحَيْد، (حيد عبس) آل عبيد، آل عمار.

وهذه القبائل كلها ليست بذات صلة بالقبيلة المقصودة: عبس الغطفانية التى ينتسب إليها عنترة بن شداد.

أما لنسب هذه القبيلة، فلابد من الرجوع إلى بعض المصادر التى لا يرقى إليها شك مثل جمهرة النسب للكلبى، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والأنساب للسمعانى، وعجالة المبتدى، والإنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر، ونسب عدنان وقحطان للمبرد، واللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير، ونشوة الطرب لابن سعيد، والأغانى للأصفهانى، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب

للقلقشندى، ونهاية الأرب للنويرى، وصبح الأعشى، وسبائك الذهب، ولسان العرب (باب عبس) وهى التى تُجمع على أن عبس قبيلة مُضربة تكوّن مع أختها ذبيان معظم قبيلة غطفان، وقبيلة غطفان قبيلة قيسية مُضرية، وعبس جد القبيلة هو عبس بن بُغيض ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، واشتقاق كلمة عبس – بفتح العين وسكون الباء – من عَبَس الرجل يَعْبُس عبوساً وعَبْساً فهو عابس.

فعبس اسم أصله الصفة، وعبس من أسماء الأسد.

وقد أنجب عبس – الجد – خمسة أبناء هم: قطعية ووزدة والحارث وغالب وورقة، وقبائل عبس تنتمى إلى قطيعة، وقد أنجب قطيعة ثلاثة أبناء هم: الحارث وغالب ومعتم، وقبائل عبس يتصل نسبها بالحارث بن قطيعة – وهى قبائل كثيرة – أو بغالب بن قطيعة.

وقد أنجب الحارث بن قطيعة مازناً وعامراً وذكَوَان وزُبينة وشداداً وجروة (اليمان)، فمازن بن الحارث بن قطيعة له من الأبناء: ربيعة ويربوع، وقمير وبجالة، وولد زبينة: ذكوان ومن ولد ذكوان: المقاصف، وولده جروة (اليمان) عَمْرو وربيعة ومن ولد عمرو حذيفة بن اليمان.

ولربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة أربعة أبناء هم: روحة وروح ورياح وعبيد، ومن ولد يربوع بن مازن خالد بن برز، وقد أنجب رواحة: جذيمة وخلفاً وعَمْراً وعويراً (عميراً) وخالداً وحنظلة.

وقد أنجب غالب بن قطيعة ثلاثة أبناء هم عَودٌ ومالك وقيس، فأنجب عود ابن غالب: هِدماً وسهماً وعبداً ووائلة، وأبناء هدم: ناشب وكراثة ومِعْلق وحليس، وولد ناشب: عبد الله وعبد مناف (القارب) وزيداً وأفلت، وأنجب عبد الله بن ناشب: سفيان والأسلع وزيداً، وولد سفيان: زياداً وحبيشاً، فأبناء زياد: الربيع وعمارة وأنس وقيس، وأنجب حبيش الحارث وأنجب الحارث مرثداً وولد مرثد شريكا وولد شريك: قُرّة الذى وُلّىَ مصر للوليد بن عبد الملك.

فولـد مخزوم: معيـط ومريطة وقراد وصُحـار وحَذَار وزائـدة وجوية وعبد الله وجراد.

ومن ولد قراد: معاوية وقد ولد شداداً والد عنترة بن شداد.

ومن ولد جوية الحطيئة الشاعر المشهور.

وولد الأسلع بن عبد الله بن ناشب: عَمْرا (حبينة)، وولد زيد بن عبد الله عَمْراً وولد عمرو الورد وولد الورد: عروة الشاعر المشهور.

ومن بنى أفلت بن ناشـب قَنَان بن درم، وهو صحابى كان له شـأن فى حروب خالد بن الوليد، وأنجب سـهم بن عوذ بن غالب سـعداً وهو أبو حشر الذى يقول «مُكرهٌ أخاك لا بطل».

وبعد التأكد من عدم صحة رأى الناقد «فائز أبّا» الذى ذهب إليه، ذكر لى الشاعر السعودى عبد الله باهيثم أن أرض بنى عبس وديارها كانت تقع فى الجواء، وهى تابعـة الآن لبلاد القصيم، قلت فلأتأكد أيضا من صحة الرأى، وهو ما ذهبت إليه فى بعض الكتب التى استغرق البحث عنها وقتاً فى مكتبة جامعة الملك عبد العزيز والتى تحوى قسـماً مُهِماً للمخطوطات، وبين المؤلفـات المختلفة للمهتمين بحركة القبائل ومواضعها ومنها كتاب «معجم بلاد القصيم» لمحمد بن ناصر العبودى الذى ذكـر فيه قول ياقـوت «وقال الأصمعى بعد ذكره الرمة: وأسـافل الرمة تنتهى إلى القصيـم وهـو رمل لبنى عبس» وقال الهمذانى فى صفـة جزيرة العرب «من أوطان اليمامـة القصيم لعبس» وقال البكرى فى معجم ما اسـتعجم «منازل بنى عبس بين آبانين والنقرة».

وتشـمل مسـاكن عبس القصيم من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى شرقه، فجبل قطن هو الحد الغربى لبلاد عبس فهو لهم بمياهه، وقاع بولان الذى ينتهى فيه ماء وادى الرمة (بالقرب من بلدة الربيعية) هو الحد الشرقى لبلاد عبس، وجبلا أبانين همـا الحد الجنوبى لبلاد عبس، والجواء الحد الشـمالى لبلاد عبس، ولبنى عبس مساكن شمالى قطن وشمال الجواء.

وتُقدَر المسافة بين قطن وقاع بولان بما يقرب من مائتى كيلو متراً كما تقدر المسافة بين أبانين والجواء بما يقترب من مائة وخمسين كيلو متراً.

ويذكر الحسن الأصفهانى (وكان يكنى بلُغدة) فى «بلاد العرب» أن لبنى أسد مساكن فى القصيم.

وتختلط مساكن عبس فى أطراف القصيم بمساكن القبائل الأخرى، فمن الناحية الغربية تشترك عبس مع بقية غطفان من ذبيان وغيرهم، ومن الناحية الجنوبية الغربية تختلط بلاد عبس ببلاد بنى كلاب ومن الناحية الجنوبية الشرقية تجاور عبس قبائل بنى عامر وغَنَى وباهلة، ومن الناحية الشرقية والشمالية تجاور قبائل تميم حيث تختلط قبيلة عبس ببنى يربوع فى شمال القصيم والشمال الشرقى..

كما يذكر الأصفهانى فى «بلاد العرب» أيضا أن من أودية بنى عبس المشهورة: وادى الرمة وهو واد كبير تحله قبائل كثيرة، فأعلاه لسليم ووسطه لبنى كلاب وغطفان، وأسفله لبنى أسد وعبس، وثادق أعلاه لبنى أسد وأسفله لعبس والجُريّر وتحل عبس أسفله، وفى بلاد بنى عبس معادن منها: معدن النقرة ومعدن أبرق خُثْرُب وهو معدن فضة.

ويذكر البكرى فى «معجم ما استعجم» أن جُلَّ عبس يستقرون فى بلاد القصيم وهناك فئات قليلة من عبس تسكن فى ركبة بالقرب من تيماء، كما أن لبنى عبس مساكن داخل بلاد إخوتهم غطفان.

وقال الحسن الأصفهانى أيضا «إن أهل القصيم يسكنون فى خيام الخوص وهى منازل بنى عبس وغيرهم وفيه نخيل كثيرة»، ويقول فى موضع آخر «جو مرامر لعبس وأثال لعبس وهو واد فيه نخل».

وهى قبيلة محاربة ومعدودة فى جمرات العرب: قال الجاحظ «وجمرات العرب عبس وضبة ونمير» وقال ابن عبد ربه «عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان وهى إحدى جمرات العرب» وقال هبة الله الحلى فى المناقب الزيدية «جمرات العرب أربع: ضبة بن أدّ فى خندف ونمير فى عامر وعبس بن بغيض فى قيس وبنو الحارث بن كعب فى مذحج» وقال ابن سعيد «وعبس إحدى جمرات العرب»

فالذيـن يذكـرون جمرات العرب يعـدون قبيلة عبس واحدة منهـا ولا تعد القبيلة مـن الجمرات إلا إذا كانت كالجمرة لا يطؤها أحد ولا يسـتبيح بلادها، وقال ابن منظـور «الجمرة كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم لا يحالفون أحداً ولا ينضمون إلى أحد، تكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل كما صيرت عبس لقبائل قيس» ومما يدل على صبر هذه القبيلة وشجاعتها اعتراف فارس اليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدى بقوة عبس وصبرهم فى القتال حين قال:

أجاعـلة أم الثويـر خزايـةً ... علىَّ فرارى إذْ لقيتُ بنى عبسِ
لقيتُ أبا شأسٍ وشأسـاً ومالكـاً ... وقيساً فجاشتْ من لقائهم نفسى
وليسَ يُعاب المرءُ من جُبن يومـهِ ... إذا عُرِفتْ منه الشجاعة بالأمسِ

وقال عمرو بن معد يكرب أيضا: «ما أبالى مَنْ لاقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حُرّاهـا وهجيناها» يعنى بالحرين عامر بن الطفيـل وعتيبة بن الحارث وبالعبدين عنترة والسليك بن السلكة..!!

.. .. هى أرض الجواء إذن، والتى تبدأ بعد مدينة بريدة بحوالى ثمانية وعشرين كيلـو مـترا ببلدة عيون الجواء، التى تمتد شمالاً حتـى بلدة قصيباء، وقد تجولت فى عيون الجواء قرابة السـاعتين مع أحد مهندسـى الشـئون القروية طارق جمال أو (حـازم) وهـو أخ مصرى يعيش فى البلدة منذ أحد عشـر عاما فذهبنا إلى البلدة القديمـة المهجورة والتى يقال: إنها بنيت على الموضـع القديم «لمنازل» قبيلة بنى عبـس - أو بعضهـا - ثـم ذهبنا بمصاحبة أحـد أبناء المنطقة وهـو «حمد العلى الزيـدان» الذى يعمل فـى بلدية البكيرية لنقف بعد سـبعة كيلو مترات من عيون الجـواء - ماريـن بروضة الجـواء - على أرض غاف الجوا حيث توجد صخرة مشـهورة يسميها البدو فى المنطقة «حصاة عنترة» وهى التى كان يلتقى عليها عنترة بعبلة ويسـتتران تحتها عن العيون، ومن قراءة المعلقة يتضح لنا أن دار عبلة كانت تقع بأرض الجواء.. حيث تقول:

يا دار عبلة بالجـواءِ تكلمـى ... وعِمى صباحاً دارَ عبلة واسلمـى

والجـواء المقصـود هنا جمع جَـوْ وهو البطن من الأرض، الواسـع فى انخفاض

وكان أهل نجد يسمون المنطقة جواء عدنة، وهو نفس ما ذهب إليه التبريزى فى شرحه لمعلقة عنترة فى كتابه «شرح القصائد العشره» ثم يحدد أنه كان بعيداً عن موضع ديار عبلة – الذى تبدل فى تلك الحالة وأصبح فى أرض عنيزة وهى المدينة المعروفة بذات الاسم الآن وتقابل عيون الجواء فى اتجاه وادى الرمة، وعنيزة تقع فى أول الطريق إلى حائل وعلى بعد يقارب الأربعين كيلو متراً من مدينة بريدة وعيون الجواء:

كيفَ المزارُ وقد تربعَ أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغَيْلَم

وأذهب ببصرى فى الأنحاء، فى تلك النواحى الخالية إلا من الرمال والجبال متفاوتة الارتفاع، وأتذكر كيف قال ابن قتيبة عن تفجير شاعرية عنترة فى معلقته أو مذهبته، من أنه «كان لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين والثلاثة حتى سأبَهِ رجل من قومه فذكر سواده وسواد أمه وغير ذلك وأنه لا يقول الشعر فقال عنترة: والله إن الناس ليترافدون الطعمة فما حضرتَ أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيتك فى خيل مُغيرة فى أوائل الناس قط، وأن اللبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل وإنما أنت فقع بقرقر، وإنى لأحضر البأس وأوفى المغنم وأعف عن المسألة وأجود بما ملكت يدى وأفضل الخطة الصماء، وأما الشعر فستعلم، فكان أول ما قاله: هل غادر الشعراء من متردم وكانت العرب تسميها المذهبة»..

لكنى أعتقد أن ما فجّر الشعر فى نفسه هو ارتحال عبلة مع أهلها إلى موضع آخر هو الجواء، وهو الأقرب إلى الصواب لأن عنترة عاش عمره كله وهو يعيّر بسواد لونه سواء كان طفلاً أم يافعاً أم رجلاً وأن مثل هذه العيرة ليست بالجديدة أو أنها ليست بذلك السبب الذى يجعل نفسه تهتاج فتبدع مثل هذه القصيدة الطويلة والراقية على مستويات اللغة والصورة ووحدة المضمون، لكن حدثاً زلزل كيانه، هو ارتحال محبوبته، ثم تفجرت نفسه بلواعجها فذكر اسمها وهو يقف على طلل منازل قومها ليتمنى لو أن الدار تكلمت وحدثته عن شئون المرتحلة إلى مكان آخر.

.. .. ذهبتُ إلى مواضع ديار عنترة وهى فى مدينة قصيبا التى تبعد عن عيون الجواء بحوالى ستين كيلو متراً، ولنا أن نتصور بُعد المسافة فى الزمان القديم على صهوة الجياد مثلما نتخيل صدق الرواة فى القول بأن الصخرة كانت مكاناً للالتقاء بين عبلة وعنترة فهى تبعد عن الجواء بحوالى سبعة كيلو مترات وعن قصيبا أو «قو» – وهو اسمها القديم – بخمسين كيلو متراً تقريباً، وبالتالى فإن مثل هذا اللقاء ما كان ليتم لو أن المكان أقرب إلى الجواء – حيث عيون أبيها مالك بن قراد وعيون أبنائه وعبيده أو لو كان المكان أبعد، وهو ما يمثل إجهاداً لعبلة التى كانت تقطع المسافة – فى أغلب الظن – وهى ترعى الغنم فتسرح فى الوادى وتذهب إلى الصخرة.. وتذهب المعلقة إلى المعنى الذى نذهب إليه من أن الحزن الشديد هو الذى فجر شاعريته حين يقول:

فوقفتُ فيها ناقتى وكأنها ... فَدَنٌ لأقضى حاجةَ المتلوم
وتَحلُّ عبلةُ بالجواءِ وأهلُنا ... بالحزنِ فالصَّمانِ فالمتثلّمِ

فالحزن هنا ليست موضعاً كما قال أبو جعفر: «الجواء بنجد والحزن لبنى يربوع والصمان لبنى تميم ومتثلم مكان» وإنما صحيح العبارة – فيما نظن – أنه يصف وقوع أهله – تعبيراً منه عن تعاطفهم مع قصة حبه الذائعة – فى الحزن من ابتعاد الحبيبة «وهم» فى مكان بين جبلى الصمان والمتثلم «وأهلنا» بالحزن» فصوّره مكاناً مسكوناً ليعبر عن شدّته، وهذا الافتراض الذى نذهب إليه إنما يكون مقروناً بالجانب النفسى الذى لم يكن كثير من نقاد العرب القدامى يعتدّون به أو يعتمدون عليه، وربما كانت قصة طلبه الزواج بعبلة ورفض أبيها مالك، وغضب شداد من أخيه لاعتبار أن الرفض طاله هو قبل أن يطال ابنه عنترة، الذى عيّره مالك بالسواد وبأنه عبد شداد، وهو السبب فى حدوث الجفوة، ومن ثم قرار الارتحال بالأسرة التى تعنى هنا العشيرة (أو أحد بطون القبيلة)، والابتعاد كثيراً من موضع «قو» – قصيباء حاليا – إلى عيون الجواء (وهى كما قلنا مسافة تمتد لستين كيلو متراً) واتخاذ مكان هذه العيون – المائية – التى يكثرحولها الكلأ مكاناً للرعى والاستقرار، وبعدها ذهبوا إلى عنيزة المتاخمة للمكان «ربما» بعد أن عثر عنترة على

الديار الجديدة بالجواء، وهو ما يشير إليه وقوفه على الطلل (يا دار عبلة) ومن ثم كان المكان قفراً حين أراد زيارته وتفقد عبلة وأهلها فلم يجد أحداً، أو أنها ذهبت مع عشيرتها إلى أرض إحدى القبائل المعادية (الزائرين) وهى التى عناها بقوله:

حلتْ بأرض الزائرين فأصبحتْ عَسِراً عَلىَّ طِلابُكِ ابنةَ مخـــرم

وما يؤكد وجود مثل هذا الخلاف بين عشـيرة عبلة وبين عشـيرته – وهما ابنا العم – ما ذكره شعراً فى المعلقة:

إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما زمّت ركابكمُ بليلٍ مظلـــم

وهـو ما يشـير إلى خروجهـم ليلاً من ديار بنـى عبس القبيلة الأم للعشـيرتين والخـروج بليل فى عرف القبائـل العربية لا يعنى إلا هروباً من مذلة أو مصير غير مستحب، ثم يوالى معلقته فى الفخر والحماسة وما إلى ذلك مما هو معروف، لكننا أوردنا هذه الأبيات لإثبات أن ما فجَّر شاعرية عنترة هو اهتياج نفسه بحدث عظيم حيث خرجت عشـيرة عمه مالك إلى غير ذات الديار، ومن ثم فقدان عنترة فرصةَ اللقاء بمحبوبته، فبدأ من حيث كان يخشـى العرب: التعريض باسـم المحبوبة، وهو ما يثبت أيضا أن رفض زواجه منها لم يكن لسـبب ذكر اسمها – لأنه ذكره كثيراً فى قصائد صباه الأول – بل لأنه أحد العبيد، وحين شعر باليأس فإنه عرّض اسمها فى القصيدة التى تحمل الكثير من الأسى للفراق ويذكرها – أى عبلة – بما كان عليه من فروسية – أو بما كان بينهما من عشق.

ولم تشر أى المصادر إلى زواجه بعبلة، مثلما لم تشر الوقائع إلى عودة أبيها مالك وعشـيرته إلى عبـس، خاصة وأن القبيلة الأم كانت تخـوض حربا طويلة مع بنى العمومـة ذبيان اصطلح العرب على تسـميتها بداحس والغبراء، والتى حضر عنترة بدايتها وهو ابن عشـرين سـنة، «وحَسُن فيها بلاؤه وحُمدت مشاهده» وشهد أيضا نهايتها وهو ابن سـتين سـنة، والمثبت تاريخياً أن هذه الحرب اسـتمرت أربعين سـنة متواصلة، كما لم تشـر المصادر إلى غزوة أرض الحيرة – وحيداً – من أجل الظفر بألف من النوق العصافير وهى الحكاية التى تفنن فيها الشـريط السـينمائى

المعنون باسم «عنترة بن شداد» ومثله الشريط الأسبق المعنون باسم «عنتر وعبلة». والتى جاء فيها وقوعه فى أسر المنذر ثم تحطيمه للقيود الحديدية الصلدة ما يشير إلى أننا أمام بطل أسطورى يستطيع تحطيم الصلب - ربما - اعتماداً على قوله بالشعر العامى:

أنا عنتر بن عبس لُوِى قاسى الحديد وما لوُيْت

وهو ما جاء ذكره فى حديث محمد العبودى عن «قصر عنتر» فى كتابه الضخم «معجم بلاد القصيم» (ستة أجزاء)، أما بالنسبة لِلى الحديد، فهو ما كان يحدث حين يقوم بلى حديد الرمح، وهو ما يستطيعه أى فارس ذى بأس مثل عنترة، الذى كانت شجاعة قلبه فى اقتحام المعارك هى أكبر صفاته، ومثلها صرخته الداوية التى كان يطلقها فى الوغى فتزلزل أفئدة الفرسان العتاة، وهو ما يشير إلى فهمه «السيكولوجى» العميق، فإن إثارة الرعب فى المناقس أول الخطوات لهزيمته، ومن هذه الصرخات ما اهتز لها قلب ضمضم المرى وكان أحد فرسان بنى ذبيان المعدودين والمعروفين بالجسارة وشدة البأس وهو ما ذكره عنترة فى معلقته ويحمل فى نفس الوقت تهديداً لوعيد حصين ودريد ابنى ضمضم اللذين توعدا بالثأر لأبيهما من عنترة، حين قال:

ولقد خشيت بأن أموت ولم تَدُرْ للحرب دائرةٌ على ابنىْ ضمضمِ
الشاتِمى عِرضى ولم اشتمهما والناذرينَ إذا لم ألقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركتُ أباهما جَزَراً لخامعةٍ ونسرٍ قشعمِ

وتدور عجلة الحرب من جديد فيلتقى الحصين بعنترة فيطعن عنترة الحصين بالرمح فيلقيه عن فرسه، لكن الحصين ينهض ويلحق بفرسه التى انطلقت فى صفوف ذبيان فيطعن وجه عنتر بالرمح فيظن أنه فقأ عينه، وفى أثناء ذلك يحمل دريد بن ضمضم على معاوية عم عنترة فيقتله (شرح ديوان عنترة للبطيوسى) وبذلك أحرز ابنا ضمضم نصراً بقتل معاوية وطعن عنترة فى وجهه فقال حصين بن ضمضم فى تلك الحادثة:

أما بنو عبس فإن زعيمهم أحلت فوارسه فأفلت أعورا
لما رأى فرسان مُرّه والقنا لم يستطعْ لقناهُمُ أن يصبرا
تركتْ بوجهِ العبد طول حياته أرماحُ مُرّةَ والأسنةُ منظرا

وبعد حملة ابن ضمضم على عبس وقتل معاوية وطعن عنترة صاح قيس بن زهير – وكان زعيماً لعبس – بالخيل فأقحمها صفوف ذبيان وضرب قيسٌ دريدَ بن ضمضم فصرعه عن فرسه فأقبل عليه أخوه حصين، وفى أثناء ذلك كان عنترة قد مسح الدم عن وجهه وركب جواده واقتحم الصفوف يبحث عن الحصين فلما رآه الحصين هرب عن وجهه وترك أخاه فلحقه عنترة وطعنه فى مقعدته (مؤخرته) وهو يقول:

اصبر حصينُ لمن تركتْ بوجهه أثراً فإنى لا أخالك تصبر
إن الكريمَ ندوبُه فى وجههِ وندوب مُرّة لا تُرَى فى المنحر

هكذا عاش عنترة العبسى وقائع داحس والغبراء والتى حَسُن فيها بلاؤه وكثرت فيها أغراضه الشعرية حتى مات وهو على مشارف الستين عاما أو تزيد، أو كما جاء فى الأغانى للأصفهانى: أن عنترة تُوفى فى بلاد قومه عبس بين شرج وناظرة عندما هبت عليه ريح شديدة فى يوم قائظ، ونقل عن أبى عبيدة أن طيئاً تدّعى قتل عنترة وأن الذى قتله هو الأسد الرهيص، وقيل قاتله جبار بن عمرو الطائى، ووفاة عنترة بعد يوم جبلة وبعد الصلح بين عبس وذبيان، وبناء على ذلك فوفاته قريبة من وفاة الربيع بن زياد ويُقدّر أنه توفى قبل الهجرة النبوية بخمسة وثلاثين عاماً.

أما بنو عبس فإنهم تفرقوا بعد الصلح مع ذبيان ومنهم من برح دياره زمن الخصومة، وذكر ابن الكلبى فى «جمهرة النسب»: خرج عمرو بن رواحة مع قيس بن زهير حتى أتى عمّان فنزلوا فبقوا بها»، ثم قال – وهو يتحدث على آل جذيمة – «وبالكوفة منهم أهل بيت» ثم ذكر آل مازن بن غالب وهو بجالة ويربوع وقمير وربيعة فقال إنهم «أهل بيت بدمشق» ثم قال – وهو يتحدث عن بطن آخر من بطون عبس هم آل عبيد بن ربيعة «ومنهم قاضى القضاة لهارون الرشيد، وقد تولى إمارة مصر فى العصر الأموى فى زمن الوليد بن عبد الملك قُرّة بن شريك من

آل حبيس بن سفيان، فمن المرجح استقرار أناس من عبس فى مصر ومما يؤيد ذلك أن بنى فزارة من ذبيان استقروا فى مصر بعد ذلك وعبس وذبيان من غطفان.

ويذهب الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل إلى أن ابن حزم الأندلسى – وهو من رجال القرن الخامس – قال إن لبنى عبس مدينة بالشام هى «حيار بنى القعقاع» نسبة إلى جدهم القعقاع بن خليد العبسى، ويذكر ابن خلدون أن بنى رواحة فى برقة (فى ليبيا حالياً).

ويذكر القلقشندى فى «قلائد الجمّان» أن فى المغرب أحياء تنتسب إلى عبس ثم قال «فلا أدرى أعبس غطفان أم غيره».

ويذكر ابن سعيد وابن خلدون والقلقشندى أن عبساً نزحت عن بلادها وتفرقت فى الفتوح، قال ابن سعيد «وليس لغطفان فى هذه البلاد ذكر، تفرقوا على بلاد الإسلام وغلبت على أرضهم بالحجاز بطون طئ» وقال ابن خلدون فى كتاب «العبر»: «تفرقت عبس وحلت بلادها طئ وليس فى نجد لهذا العهد أحد من بنى عبس».

وقال القلقشندى فى كتابه «نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب» أنه «ليس بنجد الآن أحد من بنى عبس» فيما يرد الدكتور عبد العزيز الفيصل بأن هذه الأقوال فيها نظر لأنه تقدم أن الحسن الأصفهانى – المعروف بلُغدة – يذكر أن لبنى عبس نخيلاً كثيرة فى القصيم وأصحاب النخيل يستقرون فى بلادهم ولا ينزحون عنها» وأضاف أنه «إذا كانت بطون من عبس قد استقرت فى الشام وفى العراق ومصر والمغرب فإن بطوناً من عبس بقيت فى القصيم ولكنها لا تُعرف الآن بعبس فليس لاسم عبس الآن وجود فى القصيم».

وعليه.. واستناداً إلى شيوع بعض الصفات الأسطورية على عنترة العبسى، أرانى مضطراً إلى الحديث فى الجزء الثانى من هذه الدراسة عن شخصية عنترة وحقيقتها خاصة أن بعض الشك يحوّم حول وجودها ذاته وبعضه الآخر يتحلق حول المعلقة فيما تؤكد الشواهد التى زرناها وجود هذه الشخصية التى أشعلت الخيال العربى طويلاً منذ ألف وخمسمائة عام أو تزيد..

بقايا قصر عنترة على الجال الغربى بوادى قصيباء

فى الطريق إلى عيون الجواء.

الكاتب مع صديق سعودى أسفل الجال الغربى.

بلدة عيون الجواء الحديثة.

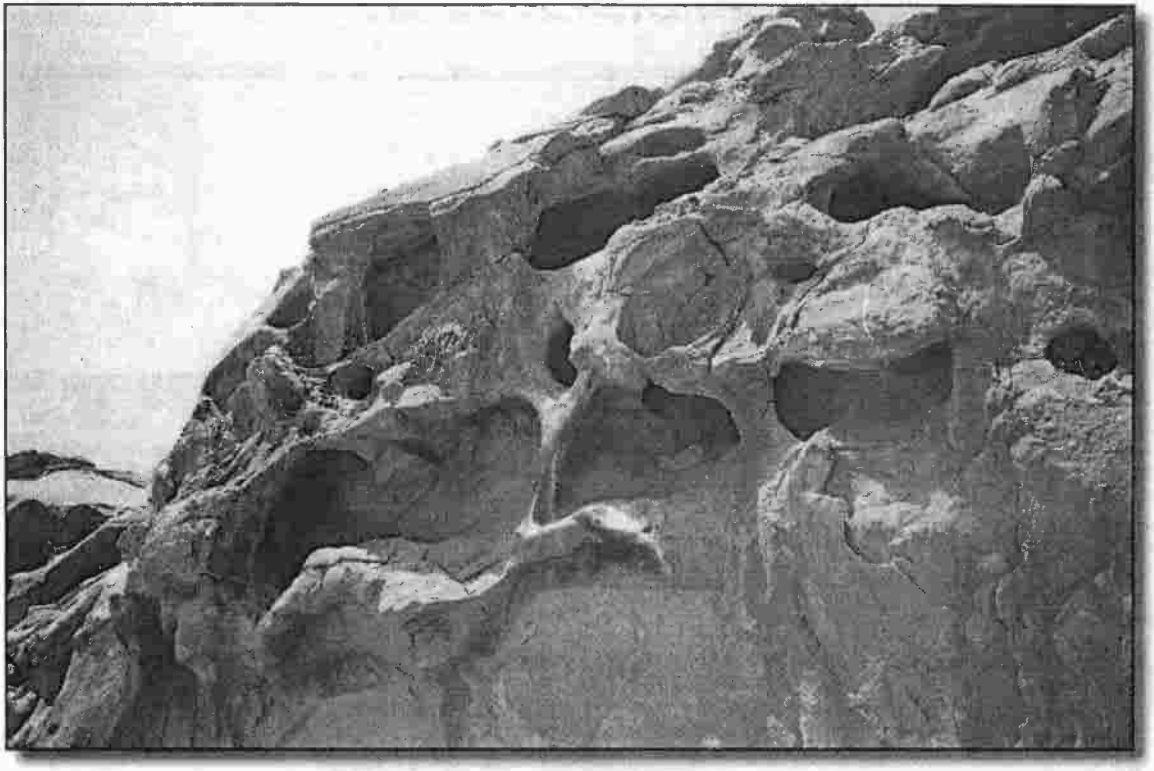

صورة مقربة لصخرة عنترة.

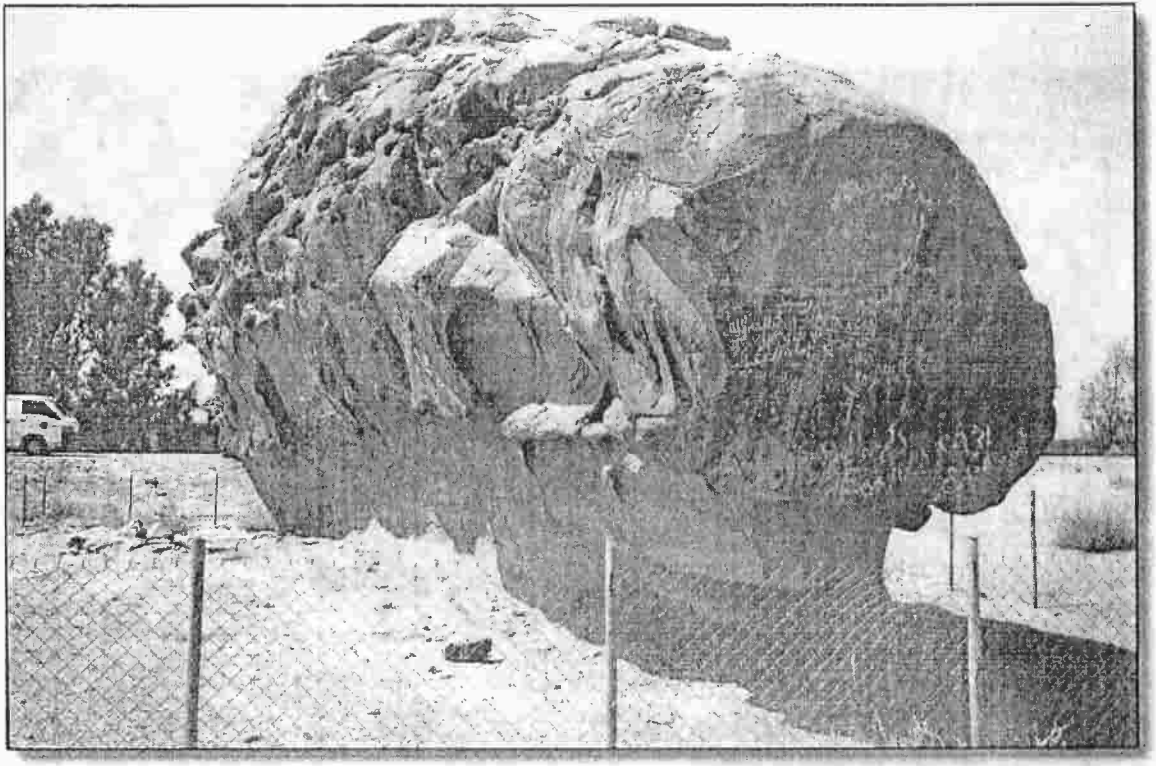

منظر عام لصخرة عنترة القريبة من عيون الجواء.